

ميثولوجيا العلم - من أسئلة اللاممكن إلى تحقيقات الممكن -

د. فوعيش جمال الدين.¹

مقدمة

أمكن للكون أن "يملك خصائص جسيم دقيق"، وقد تحوي بعض الموجودات الصغيرة في باطنها على عوالم كونية كاملة البناء، وهنا التشابك والتعارض بين كل شيء: بين الكبير والصغير، المعقد والبسيط، المتناهي واللامتناهي...

- أين البداية من كل هذا ؟

الإشكال الحقيقي، هو أنه لم يتوضَّح أي شيء بشأنها حتى بالنسبة للعلماء أنفسهم، بما أنهم لاحظوا، وبشكل قاطع ومؤكد، أنَّ الجسيم باستطاعته التواجد في عدة أماكن في نفس الوقت. بل وأكثر من ذلك، فنفس العلماء العاملين في حقول فيزيائية متقاربة، "لا يفهم" أحدهم الآخر كما يجب، فالفيزيائي النووي يشعر بنفسه غريبا أحيانا وسط العلماء النظريين الذين يناقشون النظريات المتعلقة بمجال اختصاصه (أي العلوم النووية)، كما أنَّ فيزيائي الحقول الكهرومغناطيسية، قد يجدوا أنفسهم بصدد بحث متعلق بالتيارات الكهربائية المغناطيسية، "لا يفهموا" لا الأفكار ولا حتى المصطلحات ذاتها التي يستخدمها علماء آخرون من نفس الحقول.

هذه المفارقات (عمل العلماء) تذكرنا بقصة تشييد برج بابل، الذي وفقا لما ترويهِ الأسطورة، انهار من جراء انعدام اللغة المشتركة للبنائين.

لقد "فقد" العلم بصورة فعلية، والعلم الفيزيائي على وجه الخصوص، الكثير من حضوره مقارنة بعهود سابقة؛ ولم يقتصر الأمر على أنه بات أكثر تعقيدا، فإنَّ العلم في القرن العشرين للميلاد (20م) كان كذلك معقدا ومتشابكا بما فيه الكفاية. وعندما نتصوّر بوضوح ما يمارسه الفيزيائي اليوم، سوف نلاقي إشكاليتين عمليتين: الأولى، تتمثل في عدم امتلاكنا الوسائل التي بواسطتها يمكن رؤية المواضيع الذي هو بصدد بحثها (غياب العينة المدروسة). في الميكروسكوب البصري يمكن رؤية عناصر بكتيرية، وبواسطة الميكروسكوب الإلكتروني أمكن تصوير عناصر فيروسية وحتى الذرات "الكبيرة". إلاَّ أنه لا يمكن - حتى اليوم - رؤية الجسيم الأولي، وعلى وجه الخصوص ما يجري في أعماقه؟

ذلك لأنَّ كتلة هذا "الجسيم المفقود" صغيرة إلى درجة أن أي تفاعل له مع شعاع ضوئي أو إلكتروني يؤدي إلى تغيير موضعه فجأة (وهذا ما توصّلت إليه المقاربة الكوانتية)، أو بتعبير آخر، يلقي به جانبا ولن يكون هناك عندئذ شيء يمكن ملاحظته وبالتالي دراسته.

¹ أستاذ محاضر بجامعة مستغانم/الجزائر.

إنّ ما يشاهده اليوم علماء الفيزياء، يمثّل النتائج المتوسطة لعدد كبير من مثل هذه التفاعلات مع مختلف الجسيمات، ويمكن الحصول على بعض المعلومات عن جسيم منفرد وعن بنيته الداخلية فقط، بواسطة التحليل الرياضي، على ضوء معادلات أكثر تعقيدا. ما العمل ؟

لا يمكن ملاحظة الجسيم (أو شيئا آخر قد يكون أصغر من الجسيم) إلّا عن طريق النظرة الذهنية. أمّا الإشكالية الثانية فتتجسد في أنّ خواص الموضوعات التي تصادف الفيزيائي على المستوى المجهرى، تبقى خواصا غريبة ومتعددة الجوانب، لدرجة أنّ صور وأشكال العالم المرئي المألوف لا تكفي لوصفها. لذلك، يتوقف الحدس عن العمل في عالم الأجسام الصغيرة، حيث على الفيزيائي أن يكون متهيئا لمصادفة "حقائق" تبدو في الكثير من الأحيان مناقضة لـ "لعقل السليم". لكن ما "العقل السليم" ؟

قد يكون "العادة" المتكوّنة على أساس التجارب في ملاحظة سير الأشياء والموجودات في عالم معيّن، تلك "العادة" التي قد "تفشّل عند مواجهة ظواهر أو أزمنة جديدة". ليس بالأمر الهين مثلا، التعوّد على استنتاج نظرية النسبية، فيما يخص توسّع الفضاء والزمن. لأنّ من الصعب للغاية تصور فضاء لا وجود فيه لمقاييس الاتجاه (يمين ويسار، شمال وجنوب).

وكيف يمكن التوفيق بين العقل، الذي طبع بالسلامة والاستقرار، ونتائج التجارب التي تؤكد وجود ميزون داخل البروتون ؟ وأنّ الميزون نفسه يضم بروتونا ؟

يبد أنّ العلماء ذاتهم، يستخدمون في عملهم أشكالا وصورا وتشبيهات كثيرة، لكنهم لا يعملون على شرحها وتفسيرها في أبحاثهم وكتبهم العلمية.

افتقد علم الحياة في العصر الحالي عددا من "حقائقه"، كـ بعض التصورات العلمية، التي قد تطبع بميزة وهمية، لأنّ النظريات العلمية يجب أن تكون مرتبطة بالتجربة بواسطة التنبؤات التي "تصدق بالفعل"، كما أنّه يلزم أن تكون جميع التصورات مختبرة بالفعل "اختبارا تجريبيا دقيقا"، كلاً منها بدوره.⁽²⁾ شأنه بذلك شأن سائر علوم الطبيعة. فهو لم يعد يبحث عن "الحقيقة". بل يقوم ببناء حقيقته الخاصة. من هنا يبدو الواقع عبارة عن توازن لا يستقر أبدا. كشف لنا التاريخ بجلاء في دراسة الكائنات الحية عن ذبذبات تتتالي؛ عن حركة تتردد بين المتّصل والمنفصل، بين البنية والوظيفة، بين تماثل الظواهر وتنوع الكائنات.

إنّ هندسة الحيّ إنّما تنبثق شيئا فشيئا عن هذا التآرجح، وهي تظهر في طبقات مطمورة بصورة أكثر فأكثر عمقا دائما. ولذلك، فالمطلوب في العالم الحيّ، كما في غيره، يتمثل دائما في [شرح المرئي المعقد باللامرئي البسيط]، كما يقول الفيزيائي الفرنسي جان پيران (Jean Perrin) [1870م-1942م]. و لكن اللامرئي في الكائنات مثلا، هو كاللامرئي في الأشياء (الموجودات الفيزيائية) ذو أدرج. إذ أنّ الكائن الحي لا يملك تنظيما واحدا وحسب، بل سلسلة تنظيمات يندرج بعضها في بعض، (...)، فوارة كل تنظيم يختبئ تنظيم آخر. وبعد كل

(2) - الشنيطي (محمد فتحي)، أسس المنطق والمنهج العلمي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (1970م)، ص: 180.

بنية يبلغها التحليل تنكشف بنية "جديدة" أعلى من الأولى، (...)، ولا نبغ "البنية الجديدة" إلا بعد أن نقلب سابقتها.⁽³⁾

ويمكن سياق المثال الحي الذي يذكره الفرنسي دونيه ديدرو حول 'بيضة الدجاجة'، ليتساءل قائلا: «هل تلاحظون هذه البيضة؟ فيها نسقط جميع مدارس الثيولوجيا وجميع معابد الأرض. ما البيضة؟ كتلة لامحسوسة قبل دخول النطفة؛ و بعد دخول النطفة، ماذا أيضا؟ كتلة لامحسوسة، لأن هذه النطفة هي في حد ذاتها سائل ساكن. كيف تمر هذه إلى "نظام آخر"، إلى المحسوس، إلى الحياة؟ بالحرارة. من ينتج الحرارة؟ الحركة (...)».⁽⁴⁾ لم يسلّم ديدرو، بوجود فكرة 'المادة الجامدة'، التي قالت بها الفيزياء "الكلاسيكية"، أو فكرة التجريد الديكارتية (**Abstraction**) المتعلقة بتصور الأجسام الفيزيائية، فيواصل مساءلاته:

«أو تعتقدون، مع ديكارت، أنّها آلة تقليدية خالصة؟ (...) بفضل مادة ساكنة، موضوعة بشكل معيّن، مبلّلة بمادة "ساكنة" أخرى، وحرارة وحركة، نتحصّل على إحساس، على حياة، على ذاكرة، على شعور، انفعالات، على فكر (...) لا يبقى إلا اختيار افتراض واحد من اثنين؛ يتمثل في تخيل أنّ المادة الساكنة للبيضة هي عنصر مضمّر كان ينتظر التطور ليظهر وجوده، أو افتراض أنّ هذا العنصر اللامدرّك مرّ عن طريق الدجاجة في لحظة محددة من التطور.

وبعدها يطرح ديدرو عدة تساؤلات عميقة حول طبيعة هذا العنصر المبهّم المتّسم بالغرابة والارتباب فيقول: لكن ما هذا العنصر؟ هل كان يشغل حيّزاً من المكان؟ كيف أتى؟

أو أنّه هرب؟ أين هو؟ ماذا كان يعمل هنا أو هناك؟ هل "خلق" في زمن الحاجة؟ هل كان موجوداً؟ هل كان بانتظار مكان معيّن؟ هل هو موحد التركيب أم مختلف في هذا المكان؟ موحد التركيب، كان مادي؛ مختلف التركيب، إنّنا لا نفهم "لاسكونه" قبل التطور، و"لانشاطه" في الحيوان المتطور (...) إنّ الحساسية هي الخاصية العامة للمادة، أين ينتج التنظيم (...) المفعم بالعجائب والتناقضات والمفارقات».⁽⁵⁾

أصبح التجريد - لحقبة طويلة من الزمن - مع ديكارت، "وسيلة ناجعة" لإعادة بناء معرفة حول الطبيعة، وذلك بـ"اختزالها" إلى عناصر رياضية. لكن مع مطلع القرن الثامن عشر، أصبح ينظر إلى هذا التجريد كعائق، لأنّه، حسب وجهة نظر ديدرو، إنّها (المفاهيم الرياضية) من بين الأفكار "المسبقة" للفلسفة العقلانية، فـ"ذلك الذي لا يعرف حساب نقوده لا يعتبر أغنى من ذلك الذي يكسب فلسفاً واحداً". هذه الجملة تعبّر عن المأخذ الذي أخذه "العلم الجديد" لعصر الأنوار على ديكارت.

(3) - جاكوب (فرانسوا)، منطق العالم الحي، تر. حرب (علي)، مركز الإنماء العربي، بيروت، (1990م)، ص: 31.

(4) - Diderot (Denis), Entretien entre d'Alembert et Diderot, Garnier - Flammarion, Paris, (1964), p.p.: 274-275.

(5) - Ibidem, p.p.: 276-277.

بالفعل، كلما زاد الإنسان في اعتبار أن كل ما يمكن أن يكون رياضياً، كلما "غابت الطبيعة" التي تصدر عنها ديناميكية مبدعة قادرة على الاختراع والتنوع. لأنّ، نظام الطبيعة لا يكمن إلّا في العدد المقاس للهيكل التجريدية. وهنا، يظهر "تجاوز الميكانيزم الديكارتي" الذي نظر إلى الطبيعة كحركة لا تتغيّر، كونها حركة غنيّة ومتجددة، مثلها مثل البيضة، التي تعتبر رمزا للتكاثر والغنى، وهي دوماً قابلة للحركة والدينامية المستمرين.

وحتى نيتشه تساءل، أكثر من مرة، في كتابه 'العلم المرح' (**Die Fröhliche Wissenschaft**) قائلاً: «هل تعتقدون أنّ العلوم كان بإمكانها التطور والازدهار بمعزل عن نشاطات الكيميائيين والمنجمين والسحرة، الذين ساهموا بشكل مباشر وغير مباشر في إشباع الرغبات الباطنية والممنوعة؟ ألا ترون أنّها عمليات لانهائية، سمحت بنهضة المعرفة العلمية؟»⁽⁶⁾.

إنّ محاولة تجاوز الأزمة في الفيزياء المعاصرة مرهون بالعودة إلى الأسطورة؛ والأسطورة كـ"براديقم بديل" ليست وهماً أو تهيؤاً من صنع الخيال، لأنّ الرأي السائد، ينظر إليها كبدعة مختلفة، انطلاقاً من وجهة نظر دينية أو فنية أو حتى اجتماعية... لكن آن الأوان، أن ندرس الأسطورة ونتناولها من الداخل؛ أي من وجهة نظر أسطورية؛ من وجهة نظر الوعي الأسطوري. فقد تكون الأسطورة هي الواقع الأكثر وجوداً وتمثلاً، والأكثر كثافة وتوتراً. هل هذا "الواقع الواضح والملموس" هو واقع من وحي المصادفة والخيال؟

1./ تحليل بنية الأسطورة:

_ ما الأسطورة؟

في الخطاب المتداول للقرن التاسع عشر، كانت تعرّف على أنّها عبارة عن "تعارض للواقع": فخلق سيدنا آدم أو 'الإنسان الخفي' (**Invisible Man**)، مثله مثل قصة العالم المروية من طرف الزولو (**Zoulous**) أو (**Zulu**)؛ وهم شعوب مختلطة يفترض أنّها عاشت في الجنوب الشرقي لإفريقيا، أو تيوفونيا إيزوييد (**Theogony of Hésioide**)، كلّها كانت إلى ذلك الوقت عبارة عن أساطير؛ أي "قصص خيالية معارضة للواقع الحقيقي".

هذا الواقع الذي عبّر، في كثير من الأحيان عن "بديهيات الوضعية المنطقية"، النابعة عن اعتقادات دينية/مسيحية.

⁽⁶⁾-Nietzsche (Friedrich), Le gai savoir-Fragments posthumes (1881-1882), trad. Klossowski (Pierre), Gallimard, Paris, (1967), p.:192.

حسب ميرسيا إيليايد^(*) (Mircea Eliade) [1907م-1986م]، كل ما لم يوجد له من تبرير منطقي في الكتاب الديني - بنصّه الاثنين - يعتبر ضرباً من المهرطقة والقول المغلوط أو الخرافة الزائفة (Fable). لكن الدراسات الإثنوغرافية التي أعقبت الحرب الكونية الثانية، بينت بنوع من التعليل العلمي، أنّ هذا الإرث الأسطوري ضروري لفهم وتفكيك خبايا الحياة المعاصرة. لأنّها (الحكايات الشعبية والأسطورية) كانت من وضع شعوب بدائية ذات "تفكير أصولي"؛ أي أنّ الأساطير اعتبرت أساساً للحياة الاجتماعية والثقافية لتلك الشعوب، فكانت تعكس "حقائق مطلقة"، لأنّها تعبّر عن قصص مقدّسة⁽⁷⁾ أو قد تكون مقولات حتمية للتفكير والحياة؛ عكس مقولات العلم ما بين القرون الثلاثة: (17م-19م) التي بدت "غير متطابقة" مع الواقع، وهنا حاول كانط التوفيق بين "موضوعية العلم" و"ذاتية الزمن والمكان" وبقية المقولات الأخرى؛ وهنا "استحالت مهمته" في عملية التأسيس.

يقال أنّ الأسطورة تتضمّن قضايا فلسفية؛ لأنّ الديانات وما تتضمّن من أساطير هي نتاج الإنسان الذي وضع فيها أرفع وأعمق ما يملك، وضع فيها وعيه للحقيقة. يترتّب على ذلك، أنّ الأشكال الأسطورية تتضمّن شيئاً عقلياً وآراء فلسفية (...). ولأنّ "المنهج الأصيل" هو منهج البحث عن أفكار فلسفية في الأسطورة.... إذن هذا المنهج عقلياً ويجب أن يصبح "مطلقاً"^(*)، أنّ الأديان والأساطير من نتاج العقل الآخذ في التحول إلى وعي؛ وهذه النتائج مهما ظهرت "فقيرة"، إنّها تتضمّن مع ذلك شيئاً من العقل؛ فهي تعتمد على "الغريزة العقلية".⁽⁸⁾

وقد تجعلنا بعض الأساطير نؤمن بالفكرة التالية: [العودة إلى الأصل]، هذه العودة تحضّر "ميلاد جديد"، لكن هذا الميلاد لا يكرّر الأول؛ الميلاد الفيزيائي. هناك إعادة مخاض أسطوري، ذا طابع روحي، أو بمعنى آخر يسمح لنا بالولوج في "عالم وجودي جديد (يحمل نضج جنسي مشاركة في المقدّس وفي الثقافة؛ أي "انفتاح للفكر").

^(*) - فيلسوف أمريكي من أصل روماني، أمضى مرحلة من حياته بالهند (من 1928 إلى 1932م)، و حضّر بحثاً حول نظام اليوغا (Yoga)، ثمّ درّس الفلسفة بجامعة بوخارست (Bucarest) من 1933م حتى نهاية 1940م. وأصبح في عام 1945م أستاذاً بمدرسة الدراسات العليا بباريس، وهناك بدأ يكتب مباشرة باللغة الفرنسية. و بعدها، انتقل للتدريس بجامعة الصربون (Sorbonne) إلى غاية وفاته عام 1986م. وكان قد تحصّل قبل ذلك على درجة كرسى لتاريخ الديانات بجامعة شيكاغو (Chicago)، كون كل أبحاثه في هذا الميدان العلمي لاقت رواجاً هائلاً، نحو: "أسطورة العودة الأبدية" (1949م)، "غابة محزّمة" (1955م)، "المقدّس والمدنّس" (1956م)، "نوستالوجيا الأصول" (1971م)، "الأفعى" (1989م)...

(7) - Eliade (Mircea), Mythes, rêves et mystères, Gallimard, Paris, (1957), p.p.: 21-22.

^(*) - هنا هيثل يتحدث عن منهج كرينزر (F. Creuzer) و"الأفلاطونيين الجدد"، الذي اتّهم منهجهم بإقحامه لأفكار بعيدة عن التفكير الفلسفي، لذلك وجب أن يكون منهجهم معترفاً به بذاته، رغم تضمّنه لمعتقدات أسطورية.

⁽²⁾ - هيجل (فريدريك)، محاضرات في تاريخ الفلسفة - مقدمة حول منظومة الفلسفة و تاريخها - تر. خليل (أحمد خليل)،

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 2، (2002م)، ص.ص: 175-176.

إنّ الفكرة الأساسية المتعلّقة ببلوغ طابع وجودي/متعالٍ تكمن في "إعادة الميلاد لكن على المستوى الرمزي فقط؛ أي هي عبارة عن نشاطات موجهة نحو قيم الروح والفكر، ولا تمت بصلة إلى النشاط السيكونفزيولوجي...⁽⁹⁾

ذكرت أسطورة فيلقامش (**Myth of Gilgamesh**) ظاهرة الطوفان، والتي تواترت ثقافات وديانات كثيرة، وقد تبين في أكثر من موضع، أنّ هذه الأسطورة سردت وقائع طوفان سيدنا نوح مثل ما جاء في كتاب 'الإنجيل'، فقد جاء على لسان فيلقامش، أنّ طغيان الشر بين البشر، أدى إلى سخط الإله عليهم و"قراره الأخير" بتدميرهم مستثنيا سيدنا نوح، حيث طلب منه بناء سفينة تجمع عائلته مع جميع أزواج الحيوانات. وبعدها، يأتي الطوفان ليستمر زهاء أربعين (40) يوما وأربعين (40) ليلة، فتغطي المياه الأراضي لمدة مائة وخمسين (150) يوما قبل أن تجف، ثم يطلق سيدنا نوح -مثل أوتانافيشتيم (**Outanapishtim**) في الأسطورة- العصافير، غراب ثم حمامة، ليعلن عن ميلاد "كون جديد".⁽¹⁰⁾

قد يكون جانب من الميثولوجيا (**Mythology**) من وحي الخيال، لكن هي تحوي جانبا آخر هو من صنع العقل الذي يتخيّل، ويتخذ من الجوهر موضوعا له معتمدا على التمثّل الحسّي، كتمثيل الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية في صور بشرية، نحو إيروس (**Eros**)^(*)؛ إله الحب، الذي صار اسمه يستخدم لاحقا، للدلالة على الحب القائم بين الجنسين. وانطلاقا من أسطورة 'إيروس'، "ترسّخت تقاليد إنسانية" في فهم طبيعة الحب، فأصبحت النظرة المعاصرة إلى مسألة الجنس، ليست مرتبطة بطاقة الإنسان الجنسية فقط مع ضرورة الحفاظ على النوع، بل ومع فهم ثقافة الإنسان الروحية، والبحث عن "قيم أخلاقية جديدة". وانطلاقا من هنا، تبدو فلسفة الحب أكثر جمالية وتجاوبا مع عمق الطبيعة، و"إدراك الجليل".

فعلا، تتحرك الميثولوجيا في مجال الوهم، لكنّها عقلية ومعقولة من الداخل، ويمكنها تناولها فنيا و"إستيتيكيا"؛ لكن الروح المفكّر سيبحث فيها عن الجوهر، عن العام. وبالتالي، تعتبر الميثولوجيا من نتاج العقل الذي لم يكن قادرا على إنتاج الأفكار بشكل مختلف عن الطريقة الحسية؛ ولكن بسبب هذا الشكل، كان ينبغي "استبعاد" كل الأساطير من تاريخ الفلسفة؛ لأنّه فيما يتعلّق بهذا التاريخ قلّما تهمنا الأفكار التي لا تكون موجودة في الأساطير إلّا وجودا ضمنيا؛ فليس من شأننا التعاطي مع الأفكار إلّا بقدر ما تبلغ الوجود في شكل فكري. ولا يمكن للفن أن يتمثل الروح دون أن يلحق الضرر بها؛ فهو يتضمّن دائما كثيرا من العوامل الخارجية المتممة، الأمر

⁽⁹⁾-Eliade(Mircea),Aspects du mythe,Gallimard,Paris,(1963),p.:106.

⁽¹⁰⁾-Braunstein(Florence) et Pépin (Jean-François),Les grands mythes fondateurs, Ellipses, Paris, (1995), p.p.:22-23.

(*)- وهو إسم يعطى كناية لإله الحب، لكن في علم الفلك هو إسم لنجم فلكي صغير (**Asteroid**) تحت رقم 433 ° موجود في مدار الشمس، ما بين المريخ وجوبيتر (**Mars and Jupiter**). وتم اكتشاف هذا النجم من طرف الفلكي الألماني فوستافويت (**Gustav Witt**)، حيث يعتبر أقرب نجم إلى كوكب الأرض.

الذي يجعل تفسيرها عسيراً؛ إنّ الفكر وحده هو الشكل "الحقيقي"، الجدير بالفكر حقاً. وعليه، إنّنا نقف عند الأفكار المعبر عنها في شكل فكري.⁽¹¹⁾

في عدد من الأساطير نصادف تعيينات لها، فضلاً عن كونها صوراً، دلالة كذلك على الصعيد الفكري، أو أنّها تدل على صور تقترب من الأفكار اقتراباً عضوياً مؤكداً.

لنتوقف على سبيل المثال، أمام أسطورتَي بيسيثيه (Psychée) وأورفيه (Orphée)، فإذا تمّ تحويلهما إلى الجواهر، تروي لنا أسطورة بيسيثيه قصة أميرة يزورها كل ليلة، في سريرها، عاشق سرّي غامض، يمنحها من رؤيته. وأخوات بيسيثيه أقتنعنا بدافع الغيرة، بأنّ ضيفها مشوّه الوجه. ولكي تتأكد بيسيثيه من ذلك، أشعلت قنديلها ذات ليلة، فسقطت قطرة زيت على المجهول الذي كان إيروس (إله الحب)، فأيقظته وسبّبت في اختفائه إلى الأبد. وقصة 'أورفيه' تبدو مماثلة؛ إذ فقد زوجته أوريديس (Oridis)، فذهب يطلبها من بلوتون (Pluton)^(*) إله الجحيم، فوافق هذا على إعادتها إليه. لكنّه، لا يستطيع رؤيتها قبل أن يعود إلى النور. وفي اللحظة التي كاد أورفيه يريد أن يستعيد زوجته، التفت فلم ير إلّا ظلاً يضمحل في غمرة ضوء النهار.

تجري "القصتان" في جو الظلام الدامس؛ عشيق بيسيثيه وزوجة أورفيه، شبحان ليليان يختفيان عادة، عند أول صيحة ديك، أو أول شعاع شمس. إنّها كيانات وقتية لحالات لطيفة، أو كما كان يقول الشاعر اليوناني بيندار (Pindare) رؤى أحلام تختفي عندما يظن المرء حتماً الإمساك بها.⁽¹²⁾ ولا شك، أنّ هناك مجالاً لأخذ مجموعة من التفاصيل بعين الاعتبار، لأنّها تثري أو "تحوّل" الموضوع الذي هو الحب. وتبعاً للإسميسيثيه؛ هي صورة روح تبحث عن الحب الأرضي. وأورفيه المغامر القديم المكتسح، الذي انتزع بكل جدارة الجزّة الذهبية (Maneof Gold)، المطلّع العالي ونشيدته يسحر عالماً أسر موسيقاه. لكن هذا كله يجب ألاّ يخفي تسلسل الأسطورتين اللتين ترويان تحرراً نفسياً.

كما أنّنا في عدد من الأساطير، نصادف تعيينات لها، فضلاً عن كونها صوراً، دلالة أيضاً على صعيد الأفكار، أو أنّها تدل على صور تقترب من الأفكار اقتراباً كبيراً. مثال ذلك، أسطورتَي بيسيثيه وأورفيه، أو أسطورة أنّ ديانة الفرس تدل على الزمن اللامتناهي بوصفه "أساساً قديماً لكل شيء"؛ وبالتالي يعتبر أورموزد (Ormuzd) وأهريمان (Ahriman)

من التعيينات الأولى، الأشكال الأولى المتناهية، القوى الكلّية، أنّ أورموزد هو "إله العالم النوراني"، فهو مبدأ الخير، وأهريمان هو "إله الظلام والشر".

(11) - هيجل (فريدريك)، محاضرات في تاريخ الفلسفة - مقدمة حول منظومة الفلسفة و تاريخها - ص: 177.

(*) - بلوتون؛ أصبح إسم لكوكب تابع للمجموعة الشمسية، هو كوكب يبعد عن الشمس بـ 5,92 مليار كلم، وعن الأرض بـ 4,3 مليار كلم. تمّ اكتشافه عام 1930م من طرف الفلكي الأمريكي ويليام تومبوك (William Tombaugh)، ويبلغ قطره حوالي 2200 كلم.

(12) - نقلاً عن: بونوا (لوك)، إشارات، رموزاً أساطير، تر. فايز (كم نقش)، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط. 1، (2001م)، ص: 97.

توجد أساطير كثيرة تقدم الصور ودلالاتها في الوقت ذاته، أو أنّ الدلالة تكون قريبة من الصور. كان الفرس القدامى يقدّسون الشمس أو النار كوجود أرفع. إنّ الزمن اللامتناهي أو الأبدية (**Zervome A Kerne**) هو الأساس القديم لكل شيء في الديانة الفارسية. ويتضمّن هذا الجوهر اللامتناهي مبدأي أرمزدواهريمان؛ "إلهي الخير والشر". (...) وليس واحدا فردا هو الكائن الذي يدبر الكون ويحكمه، بل يختلط الخير والشر؛ وبطريقة عامة، لا تنتج الطبيعة شيئا خالصا ولا شيئا لطيفا؛ ولكنّه ليس واهبا وحيدا، (...)؛ بل هو كائن مزدوج، مبدآن متعارضان ومتحاربان، يتّجه أحدهما نحو اليمين، بينما يسير الآخر في الاتجاه المعاكس، ويحركان هذه الأرض على الأقل، إنّ لم نقل أنّهما يحركان الكون على نحو غير متكافئ. ولقد مثّل زرادشت (**Zarathoustra**) (*) "تمثيلا دقيقا"، حين رأى أنّ أحد المبدأين (أرموزد) هو النور، في حين أنّ الآخر (أهريمان) هو الظلام؛ والميثرا (**Mithra**) تشكّل وسطا بينهما. ولهذا السبب يسمّيها "الفرس الوسيط". إنّ الميثرا هي أيضا الجوهر، الوجود الكلي، الشمس المشرقة على الكل؛ وهي ليست وسيطا بين أرموزدواهريمان، غايتها السلام والإبقاء عليهما معا؛ لكن الميثرا لا تشارك في الخير ولا في الشر، فهي ليست كائنا مشؤوما التباسيا.

وعن خلق العالم المنظور وضع أرموزد فوق الأرض، في ملكوته النوراني العصيّ على الفهم، وضع قبة السماء الصلبة التي ما تزال تسبح من كل جوانبها العليا في النور الأول القديم. وفي منتصف مساحة الأرض، يرتفع جبل البوردي (**Albordi**) المرتفع حتى يلامس النور القديم. إنّ ملكوت أرموزد النوراني يقدم في صفائه وجلائه فوق القبة السماوية وعلى طريق البوردي؛ وظل الأمر هكذا على الأرض حتى الجيل الثالث. ولكن عندئذ قام أهريمان، الذي كانت مملكته الظلامية محدودة في باطن الأرض، قام بغزو العالم المادي الخاص بأرموزد وشاركه في حكم الكون؛ والآن صار الفضاء بين السماء والأرض "منقسما بين النهار والليل". كذلك، لم يكن لأرموزد من قبل، سوى مملكة الأرواح والنور، ولم يكن لأهريمان سوى مملكة الليل؛ ولكنّه بعد الغزو عارض الخلق الأرضي للنور بالخلق الأرضي لليل؛ ومنذ ذلك الحين يتعارض عالمان طبيعيان: أحدهما صاف وطيب، والآخر مشوب وشرير؛ وهذا التعارض اخترق الطبيعة بأسرها. وفوق جبل الموردي خلق أرموزد الميثرا كوسيط على الأرض. إنّ غاية خلق عالم الأجسام (الأجرام) هي شد الكائنات المنفصلة عن خالقها من وسطها، وجعلها طيبة وللفضاء على الشعر بشكل نهائي. إنّ عالم الأجسام هو مسرح الصراع بين الخير والشر؛ لكن صراع النور والعمة ليس بذاته تعارضا مطلقا لا يقبل الحلول إنّّه تعارض عرضي؛ أنّ أرموزد، مبدأ النور، سينتصر.

ويلاحظ هيجل في هذا الصدد، أنّ الثنائية تستحق الاهتمام من الزاوية الفلسفية، كيف ذلك؟ فالثنائية تجعل المفهوم ضروريا؛ ففيها يكون المفهوم نقيض ذاته مباشرة، لأنّ المفهوم هو في الوحدة الأخرى للذات مع الذات. وبما أنّ مبدأ النور ليس في الحقيقة سوى جوهر الاثنين، وأنّ العدم هو مبدأ الظلام، الظل، فإنّ مبدأ النور يختلط مع الميثرا، المسماة سابقا باسم الكائن الأسمى. وإذا اعتبرنا في هذه التمثيلات اللحظات التي تقترب أشدّ

(*) - في كتابه 'هكذا تكلم زرادشت' (1883م) قدّم ف.و. نيتشه (**Freidrich Nietzsche**) [1844م-1900م]، نقدا "جذريا" للفكر الغربي والأخلاق المسيحية، وفيه طرح إشكالات جريئة نحو: 'الرجل الخارق'، 'موت الإله'، 'إرادة القوة'....

الاقتراب من الفلسفة لا يمكن أن تهمنا سوى الأفكار العامة وحدها: أن كائنا لطيفا يظهر نقيضه المطلق تتعارض مع الجوهر، موضوع على مسافة منه. هنا فقد الجوهر مظهر الإمكان، الحدوث العرضي؛ ولكن المبدأ الروحي لا ينفصل عن المبدأ الطبيعي، نظرا لأنّ تعيّن الخير والشر تمّ في الوقت الذي تمّ فيه تعيّن النور والظلام. كما يستنتج هيجل عبر هذه المعادلة، أنّ الفكر "ينسلخ" عن الواقع ولكنّه لا ينفصل عنه، بحيث أنّ ما فوق الحسّي لا يعاد تمثيله فيه مجددا إلاّ بطريقة حسية، مفتقرا إلى الماهية، ومشتتا؛ ولكن في المقابل يعاد جمع كل شتات الملموس في لطافة التعارض وتكون الحركة ممثلة هي أيضا بشكل لطيف، بسيط.⁽¹³⁾ والأسطورة ليست مفهوما مثاليا، ولا هي فكرة أو مفهوم: **الأسطورة هي الحياة ذاتها**، وبالنسبة للذات الأسطورية هي حياة حقيقية، مع كل ما فيها من آمال، ومخاوف، وترقبات، ومع كل ما فيها من تفاصيل يومية واقعية. ليست الأسطورة وجودا مثاليا، لأنّها بمثابة واقع مادي معيش؛ "واقع جسدي متشوّء". إنّ التعامل مع الميثولوجيا يتطلّب وظائف عقلية معزولة؛ من تذكر وتحليل وتركيب، وفصل الجوهر عن الهامشي، للوصول إلى تعميمات علمية أولية. فلامعنى للعلم بمعزل عن المشاغل وفوضى المسائل التجريبية التي تحاول أن تديرها الأنظمة الرياضية.

وبذلك، تصبح الأسطورة بداية العلم؛ أي بداية العلم البدائي، الذي يحوي مقدارا كبيرا من النزوعات إلى الإدراك، وهو مليء بالعواطف والانفعالات الواقعية... وبهذا يكون ميثولوجيا، رغم أنّه منذ كان على أولى درجات سلم تطوره لم يكن يشترك بشيء مع الميثولوجيا. فالإشكالية لا تحاول مناقشة؛ هل الميثولوجيا تتقدم العلم؟ أو هل العلم ينبثق من الأسطورة؟

لأنّ العلم "لا يترافق ترافقا وثيقا" مع الميثولوجيا فقط، بل و"يقتات عليها"، مستخلصا منها حدسه الأولي. "منطقيا" الفكرة تسبق المادة، أو أنّ المعنى يسبق الظاهرة؛ لذلك يصبح المعنى والمفهوم موضوعيان، والممكن إثباته واستنتاجه يتأسس على ما لا يثبت ويستنتج، فالميثولوجيا تكون كذلك حين لا تكون قابلة للإثبات أو البرهان.

2./ ميثولوجيا العلم:

وعليه، يصبح العلم هو الآخر ميثولوجي؛ فميكانيكا نيوتن مبنية على فرضية المكان اللاهوائي ذي الطبيعة الواحدة. الكون "لا حدود له"، ويصبح لا شكل له، يصبح بذلك، "فضاء متجانس بالمطلق". هذه كلّها استنتاجات وتخمينات علمية، اعتمدها العلم كعقيدة دينية أساسية، ونظرية انقسام المادة اللاهوائي ليست أقل ميثولوجية من سابقتها. رأينا بأنّ المادة تتألّف من ذرات. لكن الذرة "شيء مادي"، فهذا يعني أنّ لها شكلا وحجما معيّنا، كأن تكون مكعبة أو كروية. لكن الإشكال أنّ للمكعب أطوال أضلاع محددة وقطر محدد، كما للكرة أبعادها المحددة. حتى الضلع والقطر ونصف القطر أبعاد يمكن تقسيمها، كأنّ نصفها مثلا، وبالتالي إنّ هذا

(13) - هيجل (فريدريك)، محاضرات في تاريخ الفلسفة. مقدمة حول منظومة الفلسفة و تاريخها، ص.ص: 177-179.

يعني إمكانية تقسيم الذرة على ما لا نهاية. لكن أن تكون الذرة غير قابلة للانقسام، فهذا يعني أنها لا تملك "بنية فراغية"، وهكذا، فإما ألا تكون هناك أية ذرات كبنيات مادية، أو أنها تكون قابلة للانقسام إلى ما لا نهاية. بالمقابل، إذا ذهبنا إلى القول بإمكانية عدم وجود الذرة، فكيف تكون إذن هذه الذرة التي تنقسم إلى ما لا نهاية غير قابلة للانقسام؟

هناك غموض وتذبذب، في كلتا الحالتين، تجعله الميثولوجيا "وضوح" و"اتساق". وهنا تبقى الميتافيزيقا الذرية تحافظ على مكانتها في عمق الفيزياء المعاصرة.

وبناءً على ما تقدم، "لا يولد العلم من الأسطورة"، ولكنه لا وجود له بلا أسطورة، ولأنه دائماً ذو **حضور ميثولوجي**. لكن ليس معنى ذلك، أن العلم والميثولوجيا متطابقين، لأن العلم "المحض" هو منظومة قوانين عامة ومجردة، فهندسة أوكليدس ليست ذات منحى أسطوري، لكن هذا الأمر لا يمنعنا من التفكير في وجود "مكان آخر" غير "المكان الأوكليدي"، والمكان ليس واحداً، حتى الكون لا يمكن أن يكون دائماً بشكل واحد. -ألا يمكن أن تكون الأساطير محاولات لفهم وتفسير الظواهر الطبيعية ونواميسها؟

في نصوص التوراة عن أيام التكوين السبعة (07)، لا وجود لنظريات علمية حول علم الفلك، أو علم الجيولوجيا، ولا أي علم آخر، فلم يستطع عالم فلكي واحد "تفسير" كلام سيدنا موسى -عليه السلام- من وجهة نظر علمية.

نعتقد أن قوانين الفيزياء المعاصرة، ستكون ذاتها في حالة واقعية المادة أو لواقعيتها، انطلاقاً من افتراض علمي يمكن بناؤه، ومفاده أنه لا وجود لمادة فيزيائية إلا في **المخيّلة**.

وعلى هذا الأساس، أن الألوان أن نتحدث عن واقعية الأسطورة وموضوعيتها، لأنها (الأسطورة)، تتعامل مع موضوعات وظواهر قائمة بذاتها، عكس الفيزياء التي عرف خطابها نوعاً من الاضطراب في تحديده لمفهوم المكان. تصبح الأسطورة، وفق هذا المنطق، "مناقضة للقوانين العلمية"، لأنها تريد أن تشكل ذاتاً معينة، كونهما فاعلة باستمرار، موضوعها الذات الموجودة بالفعل.

إنّ جوهر العلم هو الفرضية (**Hypothesis**)، لأنّ محتواه العميق، لا يقتضي بلوغ "الحقيقة الكاملة"، فيكتفي بوضع الفرضيات والتحقق منها بفضل تجارب متكررة، كتجارب الهندي س.ش.ف.رامان^(*) (Raman S.C.V) [1888م-1970م] حول انبعاث الأطياف الذرية للضوء، التي لم تستطع تفسير ظاهرة تشتت الضوء.

في عام 1928م، وعندما كان العالم رامان يدرس تشتت الضوء، بواسطة السوائل بهدف تفسير بعض الظواهر الفيزيائية مثل زرقة البحار والسماء، وجد بأنّه إذا مرّ ضوء أحادي الموجة من خلال سوائل عضوية مثل البنزين، الطلويين... إلخ، فإنّ الضوء المشتت يكون محتويًا على ترددات أخرى إضافة لتلك في الضوء الساقط.

(*) سير شاندراسيخارافانداتا رامان (Sir ChandrasekharaVendeta Raman) [1888م- 1970م] فيزيائي هندي، عرف بأبحاثه حول التشتت الجزيئي للضوء، وسميت الظاهرة التي اكتشفها، بظاهرة رامان.

وعندما فحص رامان الضوء المشتت بواسطة جهاز الأطياف، وجد بأن طيف الشعاع المشتت يحتوي على عدد من الخطوط على جانبي الخط الرئيسي. وأنّ الخطوط التي في وجهة الذبذبة الواطئة كانت أكثر عدداً وأكبر شدة من الخطوط التي في جهة الذبذبة العالية. وقد أطلق على هذه الخطوط 'خطوط رامان'؛ عندما لاحظ رامان هذه الذبذبات في عملية التشتت، استطاع أن يستنتج بأنّها تتضمن "ظاهرة جديدة" تتميز عن كل من تشتت رايلي (Rayleigh) البسيط وتشتت الفلورسنت الأكثر تعقيداً. وبالرغم من وجود تشابه سطحي بين 'خطوط رامان' وطيف الفلورسنت، حيث ظهور "خطوط جديدة" للذبذبات للخط المتجهّن. إلا أنّ رامان، "لم يستطع" أن يربط بين ظاهرتيه وعملية التفلور.

إنّ "النظرية الكلاسيكية" للموجات الكهرومغناطيسية تستطيع أن تعطي فقط "تفسير بسيط" وغير متكامل لظاهرة رامان إذ أنّه عندما تمثل موجة ضوئية وتسقط على جزيئة، فإنّه يتولّد داخل الجزيئة عزم قطب ثنائي كهربائي متذبذب التشويه للجزيئة، حيث أنّ العزم الثنائي المتولّد، له اتجاه يختلف عن المتجه الكهربائي المتجهّج، خاصة في حالة الجزيئات متباينة الخواص حسب اتجاهاتها. لذا، فإنّ الجزيئة، تتصرف مثل متذبذب وتشتع طاقة على هيئة أمواج كهرومغناطيسية.

لنفرض الآن، بأنّ بعض أنواع العمليات ذاتية داخل الجزيئة نفسها، مثل دورانها أو ذبذبتها، إذ تتغيّر سعة الموجة المنبعثة دورياً. فإنّ العزم الكهربائي للمتذبذب في أية لحظة يعطى بمقدار "مجهول".
-لكن هذا التفسير "غير متكامل"، لماذا؟

أولاً: لقد افترض بأنّ تذبذب أو دوران الجزيئة، هو أساس لميكانيكية 'تشتت رامان'. ولكن من الممكن باستخدام قانون بولتزمان؛ أي في محاولة إثبات بأنّ الجزيئات التي هي ذاتياً في حالة ذبذبة تكون قليلة عند درجات الحرارة الاعتيادية، وعددها يقلّ بشكل سريع عند الذبذبات العالية. من هذا، يمكن القول أنّ غالبية الجزيئات في المادة المشتتة لا تشارك في 'خطوط رامان'. هذا الاستنتاج يتعارض مع ظهور 'خطوط رامان' ذات الشدة العالية ولإزاحات ترددية عالية.

ثانياً: بناءً على هذه النظرية، حيث أنّ كلا من 'خطوط توكس' و'خطوط لا-ستوكس' تنشأ ظاهرياً من نفس الجزيئة. لذا يجب أن تكون لها نفس الشدة، وهذا غير مبرهن عليه فيزيائياً، لأنّ خطوط ستوكس تكون دائماً شدتها أكبر بكثير ممّا يلاحظها في "خطوط لا-ستوكس".

ثالثاً: إنّ تكميم طاقة الدوران غير متوقعة في هذه النظرية "الكلاسيكية" المفروضة، حيث لا يوجد احتمال حساب -وبصورة منفصلة- شدة خطوط رامان الدورانية المنفردة.⁽¹⁾

وبالتالي فالارتباط بين الظواهر ليس موجود بالضرورة، بل موجود بالافتراض المستمر والمتكرر، ودور العلم هو "تأكيد هذا الوجود الافتراضي".

(1) -الجبوري (محمد أحمد) وعبد النور (كمال نصر)، الفيزياء الحديثة، ص.ص: 395-398.

تحتاج الفيزياء هي الأخرى إلى تصورات ومعتقدات لاهوتية، لاستخلاص القوانين الأساسية، التي ما لبثت أن عرفت ارتدادات متعاقبة نتيجة "قطيعتها اللامبررة" مع المعتقدات الأسطورية. إذن لا تناقض بين الميثولوجيا والعلم، فالأسطورة "تملك" مصداقيتها الأسطورية، بتمييزها الحقيقي عن المتخيل، والواقعي عن المتصور. حتى "الصراعات الأسطورية" بين الوعي الديني والوعي الوثني، تهدف إلى إثبات "حقائق" أسطورية وليست حقائق علمية مجردة، لأنّ لهذه الأسطورة حقائقها ومقاييسها ومناهجها التي تنظم شخصيتها.

تصبح بذلك الأسطورة لا هي ببنية علمية ولا هي ببنية بدائية، بل هي علاقة حيّة، تتضمن في ذاتها "حقيقة أسطورية خالصة"، مبنية على أسس خاصة بها.

3./ هل تفسير العلم بالأسطورة خرافة ؟

تكون كذلك، إذا نحن أنكرنا عن الخرافة وجودها الواقعي المحسوس، فأبطال "الحكايات الخرافية" يعيشون أحداث الحب والانتقام والتضحية...، وبالتالي، فهم أحياء يولدون و"يموتون داخل متون" هذه الروايات، وكل شيء في الأساطير ظاهري، حسي، ملموس، ليس فقط الأساطير الوثنية، بل جميعها وعلى اختلافها. ليست الأسطورة علما ولا خرافة، وليس لها أية علاقة مباشرة بهما. لأنّ هذه العلاقة غائبة "غايبا مطلقا" بين هذين العالمين في الأسطورة، فلا وجود لعلاقة سببية أو طبيعية بينهما. لكن رغم ذلك، يبقى التساؤل مطروحا: هل للظواهر الفيزيائية المعاصرة ميثولوجيتها ؟

للضوء الطبيعي مثلاً- ونحن نقصد ضوء الشمس- محتوى ميثولوجي سحري، ملفت للنظر، بينما ضوء المصباح الكهربائي هو ضوء ميكانيكي، لا يوحي بشيء، بل يعمل في كثير من الأحيان على تبديد الأحاسيس، لأنّه مطبوع بحماس الكم في مواجهة النوع الذي لا يعوض ولا يستبدل، إذ أنّه يكبح الميول والرغبات الفاعلة؛ وفيه تنتفي طيوف الأضواء والزوايا الخفية، وطيوف الأضواء، والنظرات الشمولية الحكيمة. إنّهُ ينتمي إلى عائلة "الكون النيوتيني-اللانهاثي" الذي لا يمكن الوصول عبره إلى أية ذرة.

ومنه، فقد ارتبطت الميثولوجيا بالأضواء والألوان الطبيعية، لذلك يجب تناولها كما هي معروضة في الفن، لمحاولة اكتشاف طريقة سردها ونظمها، وكيفية تصورهما في حلقتهما الكاملة. وبهذا الارتباط الدلالي فهي إنّما ترتبط بالرمز (Symbolism)، فتصبح بعد هذه الصيرورة متضمنة لطبقات أخطوطية ومجازية جد معقدة.

وبهذا تصبح الميثولوجيا، مشروع ثقافي، فهي ليست مجرد تعبير، بل هي رسالة حيوية ملهمة (Message Inspired-Active). فالصورة الميثولوجية يمكن أن تكون أخطوطة ومجازا ورمزا؛ لأنّها تقدم تأويلات مباشرة للكائنات الحية والشخصيات، أو تتحدث عن الحي بطريقة موحية. لكن ليس معنى ذلك أنّ موضوعها هو دائما شخصية معينة أو جوهر حي...

فالصورة الأسطورية تأتي أسطوريتها من طرائق تشكيلها؛ أي من خلال طريقة التعبير عنها، وأسطوريتها تكون تبعا لفهمها من الطرف الآخر. وعليه، فلا وجود لوعي أسطوري بمعزل عن الآخر. تكمن الإشكالية في أسلوب التعبير عن الواقعة، وليس الواقعة ذاتها، هذا الأسلوب مرتبط بالإنهام (Inspiration)، ففي تعبيره عن

امرأة طيبة القلب، اعتبرها الشاعر الإيطالي دانتي (Alighieri Dante) [1265م-1321م]، مصدر "الإلهام وروحي إلهي"، حيث قال فيها في كتابه 'حياة جديدة' (Lavitanuova): «تظهر سيدتي بنبل وعفة عندما تسلم على الآخرين، فتسكت جميع الألسنة ولا تجرؤ الأعين النظر إليها. لتذهب كلُّها تواضع، وكأَنَّها وحي أتى من السماء ليحيط على الأرض وفي يده معجزة. تظهر وكلُّها وداعة ولطف لكل من ينظر إليها فتلهم القلوب بأعينها، ولا يستطيع أن يحس بها إلا من يعايشها. (...) ومن وجهها، تنمو روح مليئة بالحب والرحمة».⁽¹⁴⁾

في هذه الصورة الشاعرية الجميلة، أتت أسطوريتها من طريقة تشكيل دانتي لها؛ أي من خلال تعبيره عنها، فأسطوريتها مرتبطة ارتباطاً عضوياً مؤكداً بمدى تجاوب القارئ لها.

لا حدود فاصلة بين الأسطورة والرمز الشعري، كون الرابطة الخفية التي تربطهما تسمى الإلهام؛ الذي يتجسد في طريقة ظهور الأشياء، وكيفية تشكّلها والتجاوب معها.

— ما طبيعة هذا الانفصال الأسطوري ؟

إنّ الانفصال الأسطوري هو انفصال ذا مدلول، أي يحمل وقائع حياتية، رغم الفرق الذي قد نلتسمه بين الواقع الأسطوري والواقع اليومي (المادي)، كون الواقع الثاني أقوى حضوراً وتجسّداً من الأول؛ لأنّ الانفصال هو انفصال عن المدلول والمعنى. البساط (Carpet)، في الحياة اليومية هو قطعة عادية من القماش المزخرف، بينما "البساط الطائر" التي تحدثت عنه المخيلة الفارسية والفرعونية والهندية على حد سواء، يشكّل صورة أسطورية. الفرق بين البساطين ليس في الشكل أو الحجم، بل في المدلول، لأنّه ("البساط الطائر") قدّم "فكرة جديدة"، قائمة على الوظيفة التي أصبح يمنحها لنا، لذلك، تغيّرت نظرنا إليه. ومنه، يمكن القول بأنّ المدلول الأسطوري يعمل على تأكيد وظيفة "الشيء الموصوف" أثناء سرد "الرواية الأسطورية"، التي تحمل "وقائع جديدة"، منفصلاً انفصالاً دلالياً عن محتواها المألوف.

ويمكن أن نفترض، أنّ الأسطورة قد تشكّل واقعا يعمل على توحيد المعطيات الموجودة بصفة منفصلة عن بعضها البعض، كاجتماع البساط (وهو قطعة من قماش) مع الطيران (وهي وظيفة تقوم بها الطيور)، لأنّهم، لا يمكن بأيّ حال من الأحوال، أن يجتمعا في "الواقع الأول"، وهنا تظهر صورة ميثولوجية تعمل على توحيد اللاموحد، ليختفي الاختلاف الطبيعي المعتاد بينهما. وهكذا، تكون الفكرة التي "وحدتهما"، قد جعلت منهما وجوداً منفصلاً قائماً بذاته؛ فالانفصال هو تحوّل؛ تحوّل فكرة الشيء الموجودة طبيعياً، إلى "فكرة جديدة" ستوجد أسطورياً، ومن هنا، يتغيّر "منطق العالم"، بل الكون بأسره.

وعليه، تصبح الأسطورة عبارة عن علاقة متبادلة وفطرية بين الإنسان وبقية الموجودات التي تحيط به، وهي تستخرج هذه "الأشياء"، من مجرى عاديّتها في حالة عدم وضوحها، فهي موجودة مستقبلاً في إطار الممكن (Possible)، وسيستمر وجودها المستقبلي طالما ظهرت إمكانية فك روابطها السرية.

(14)-Dante(Alighieri), Vienouvelle, trad. ChristianBec, Editions du livre de poche, Paris, (1996), Chap.:26.

وانطلاقاً ممّا سبق، يمكن الافتراض أنّ الانفصال الأسطوري هو انفصال عن الوجود الإنساني المجرد؛ فهو إن شئنا "فلك" تنتقل فيه المفاهيم من العالم المجرد إلى العالم الحسّي؛ من الرمز إلى الأسطورة، مشكّلاً "وحدة لا تقبل الانفصال".

ونجد من جهته لوسيانليقي-برول^(*) (Lucien Lévy-bruhl) [1857م-1939م]، قد خصّص ستّة (06) فصول كاملة في كتابه 'الروح البدائية' (L'Ame primitive) حول الانفصال الروحي؛ أي انفصال الروح عن الجسد، والانبعث من جديد، وما ذكرته الأساطير للشعوب "البدائية" الأولى عن قضايا الانفصال وعن إمكانية وجود "حياة أخرى في كون آخر". إذ يرى أنّ الحياة في العالم الآخر، لا تنتهي بالضرورة كما تنتهي حياتنا في عالمنا نحن. هناك "أموات لا يموتون". إنّ التجسد أو "التأنس من جديد" (Réincarnation) ولو لمرحلة معيّنة، يحفّزهم على العودة إلى هذه الأرض.

في الكثير من المجتمعات، الأطفال الذين يولدون في العالم، كانوا قد وجدوا من قبل، ولأكثر من مرة. إنّهم يولدون ليموتون، ويموتون ليعثون بعد انقطاع قد يطول. لكن، أثناء هذه المراحل المتعاقبة عبر الوفاة (أي انفصال الجسد عن الروح)، ما مصير "فردانيتهم" (Individuallité)؟ وهنا كذلك، سنجد أنفسنا أمام تمثّلات أو تجسّدات تظهر غامضة، مجردة أو حتى أنّها متناقضة. فروح البدائيين تأخذ طرق و مسالك، يصعب علينا للغاية اتّباعها.

يعترف هنا ليقي-برول، بغموض عالم الانبعث، رغم إيمانه القاطع بإمكانية وجود "أكوان" أو حياة أخرى في مكان آخر؛ لأنّ الانبعث في أعماقه تحدّد وإيمان بالموت، من أجل "التجسد" من جديد.

وقد تناول كبراديقم عن فكرة التجسد، شعب الإيسكيمو (Eskimo) المتواجد بإقليم ماكينزي (Mackensie) شمال كندا (Canada)، معتمداً على دراسات قام بها الأمريكيان ستيفانسون (Stefansson) ونالسون (Nelson)، حيث لاحظا، أنّ الوالدين يتحمّلان كل حماقات وسوء التصرفات الصادرة عن ابنتهما الصغيرة، ولا يعملان على تصويب سلوكاتها اللاعقلانية، في الكثير من الأحيان. بل أكثر من ذلك، يلاحظ ليقي-برول، إنّهم ينادونها باسم "الأم"؛ أي الطفلة الصغيرة هي أم لوالديها، لذلك، هي في منأى عن اللوم أو العقاب!؟

ترى ما تفسير هذا النمط من التفكير الماورائي، الأسطوري، المطبوع بالسحر والغربة؟

^(*) لوسيانليقي-برول، فيلسوف و عالم إثنولوجي فرنسي، دّرس بالصربون (1899م-1927م)، وكان مديراً للمجلة الفلسفية. وفي سنة 1925م، أسّس معهد الإثنولوجيا (Institut d'Ethnologie). من أبرز كتبه: 'الوظائف الفكرية للمجتمعات الأولى' (1910م)، 'الفكر البدائي' (1922م)، 'الروح البدائية' (1927م)، 'الميثولوجيا البدائية' (1935م)، حسب ليقي-برول، فالشعوب "البدائية"؛ أي تلك التي لم تكتشف فن الكتابة بعد، تفكر بطريقة مغايرة تماماً لطريقة التفكير "العقلاني". لأنّها (الشعوب البدائية)، تملك "تمثّلات" ومعتقدات مشتركة، والتميّز بعدم التفريق بينما هو طبيعي وماهولاً طبيعي. هذه المعتقدات أو "التمثّلات" الغير مقيّدة بمفاهيم (Non- conceptuelles)، هي اعتقادات أسطورية في أعماقها، وغير مرتبطة ببعضها البعض. إنّ المبدأ الأول للفكر "البدائي" هو 'قانون المشاركة' (La loi de participation)، الذي يعارض مبدأ اللاتناقض.

إنّه عند وفاة شخص ينتمي إلى "مملكة الإيسكيمو" ...، و بعد إقامة طقوس المأتم التي تدوم أربعة(04) أيام من تاريخ الوفاة، إذا كان الميت رجلاً، ستكون خمسة(05) أيام، أما إذا امرأة، فالروح(SpiritThe) "مطالبة بالخروج من البيت"، والذهاب إلى القبر، أو البقاء مع الجسد، في انتظار ولادة "طفل جديد" في أحضان العائلة.

عند ولادة أيّ طفل من الإيسكيمو، سيأتي إلى العالم مع روح(Nappan)، تابعة له؛ لكنّها ليست خبيرة ومحصّنة. وعليه، هذا الرضيع بحاجة إلى "روح أكثر تجربة و تعقّلاً" ممّا يملك؛ هذه الروح تفكر فيه و تمنعه من الوقوع في الزلل. لذلك، ومباشرة بعد وضع مولودها، تتفوّه الأم بعبارة سحرية حتى تأتي الروح من القبر و"تسكن الرضيع قصد حمايته"، لتصبح Atka بالنسبة إليه.

لنفرض أنّ آخر ميتّ في هذه العائلة كان الجد الأكبر، فالروح التي تسكن الرضيع هي روح الجد، بما تميّز به من ثبات ووقار وحكمة. لذلك، لا يمكن نهي "الرضيع-الجد"، أو معاقبته، بل بالعكس، إذ يجب الانتباه إلى كل ما يقوم به، باعتباره قدوة جميع أفراد العشيرة، ورمزها الثابت. لكن بمجرد بلوغه العاشرة(10) أو حتى الثانية عشر من عمره(12)، إنّ "روحه الأولى" التي ولد بها(أي Nappan) ستكتسب نوعاً من الخبرة الذاتية والاستقرار النفسي، لتبدأ "الروح الثانية" التي تحرص عليه(أي Alka) في الابتعاد عنه شيئاً فشيئاً، وهنا يبدأ الوالدين بإعطاء بعضاً من أوامر النهي و الإرشاد. إنّ "الإنسان الإسكيمي" ذو أبعاد ثلاثة: الجسد والروح والاسم(أي روح الميت الحكيم)؛ لأنّه سينادونه باسم الجد وليس باسمه هو.⁽¹⁵⁾ هذه الاعتقادات البسيطة في ظاهرها، قد تضمّر إشكالات في أعماقها. لنفرض أنّ بين ميتّ وميتّ وجدت عدة مواليد، وكل مولود له الحق في "مؤانسة روح ثانية" تحميه وتسدّد مساره الحيّاتي، فكيف لروح واحدة أن تسكن عدة أجساد ؟ وقد يحدث العكس، أن يموت عدة مشائخ بين ولادتين مثلاً، ترى ما مصير الأرواح المتبقية ؟ وهل بإمكان عدة أرواح أن تسكن جسداً واحداً ؟ وأيّة روح ستكون لها الكلمة الأولى لتوجيه نمط سلوك الطفل ؟ وهنا الإشكال الميتافيزيقي الأساس لمثولوجيا Eskimo.

"لا تستطيع" الفيزياء إعطاء تفسير علمي/عملي لمثل هذه الظاهرة الروحية المعقّدة؛ لأنّها لا تملك الأدوات الكفيلة بتشريح ظواهر الانبعاث والتجسّد من جديد في عالم الأرواح؛ عالم لا تحكمه ميكانيزمات التجارب المخبرية، التي تسعى إلى التحقق ممّا تفترضه.

لنذهب أبعد من ذلك ونقول، بأنّ حتى "التجارب الفيزيائية الواقعية"، هي الأخرى بحاجة إلى إعادة نظر وفهم من جديد، وهل بإمكاننا وضع "الثقة العلمية" في هذه الواقعة المخبرية الموجودة، التي وضعت بقواعد منطقية تحتاج إلى "منطق آخر" لتفكيك نتائجها ؟

ولأنّ غالبية التجارب في "الفيزياء الكلاسيكية"، وضعت وفق تصورات "أرسطية-بيكونية-نيوتينية"، التي تناولت الموضوعات على أساس ارتباطها الضروري(السبي) مع الظواهر الفيزيائية الموجودة والمنظورة، لتصبح فيما

⁽¹⁵⁾ -Lévy-Bruhl(Lucien), L'âme primitive, P.U.F., Paris, Nouvelle édition, (1963), p.p.:409-412.

بعد "حقائق مؤكدة". إن كل هذه التصورات المنطقية المذكورة وغيرها الكثير (مرورا بديكارت، هوسرل، فلاسفة
الوضعية المنطقية وغيرهم...) لا يمكن أن تشكل "المنطق الكلي" (Total Logic)، رغم أنها قد تعمل على
تشكيل جزء من اللوفوس (Logos)، لأنه توجد أشكال أخرى لهذا العالم الخفي؛ كمنطق "العقل
الحَي" (ReasonAlive)، أو "العقل التوقعي" (EstimatedReason)، والتجارب المذكورة، لا تعمل بنمط
هذه العقول المتسمة بـ"التأزم والاستقرار"، بل تتقيد بنتائج الملاحظات المسجلة.⁽¹⁶⁾

كما لا يمكن إغفال حقيقة مفادها، أن التجربة غالبا ما تتلاشى مع التجارب اليومية التي نعيشها في الواقع
الفيزيائي الملموس، لذلك، فـ"الدروس" التي تقدمها لنا التجربة، لا تضاهي ما يقدمه لنا الشعور الأولى من خلال
تجارب الإحساس الملمسي مع الأشياء؛ كإحساسنا بطريق غايي مبلل بعد يوم ممطر. سيكون إحساسا غريبا وممتعا
في الوقت نفسه، لينمو ويكبر يوما بعد يوم. هذا الإحساس سيكون له وقعا مؤثرا في ذاكرتنا وفي مخيلتنا. بما أن
"الحياة متناهية"، سوف نعتبر دائما هذا النوع من الأحاسيس "شيئا جديدا وأبديا". هذا "الشيء" ستعجز لا
محالة التجربة العلمية من تحقيقه، لأنها بكل بساطة، "واقعة مؤقتة وزائلة" ؟ ورغم تنوع هذه الوقائع (التجارب)،
يبقى "تنوعا عقيما".

لكن لو نظرنا إلى هذه الأطروحة من جانب مغاير، كأن نفترض وجود ثقافة تنوع؛ أي أن التجربة قد تطرح
عدة قراءات علمية أو "لاعلمية"، هذا دليل على وجود عدة أوجه، ومنها وجود وجه خفي لا تقول به نتائجها
بالضرورة. إن الزائل من الأشياء قد يدوم في زواله، وليس الأمر كما نعتقد، يحدث بصفة متعاقبة ومتسلسلة؛ أي
يؤول دائما للزوال.

إن التجربة، عكس الأسطورة، تؤمن بالواقع الفيزيائي الملموس، لكن الواقع "أثبت" أكثر من مرة، محدودية
لملموسية أشيائه ولواحقها. الأمر، الذي يجعلنا نفكر في "اللاواقع"، في عالم ما وراء الفيزياء؛ في الانفتاح نحو
عمق الأشياء والحياة.⁽¹⁷⁾

العودة إلى البداهة الحياتية الفطرية أمر مؤكد، الشيء الذي سيسمح لنا بتناول الصفات الجوهرية لجميع
نظريات الفيزياء المعاصرة، تلك النظريات التي "عجزت"، إلى حد كبير، في تفسير الكثير من الظواهر الكونية، نحو
تمدد الكون أو انكماشه.

ومؤدى ما تقدم، فالأسطورة ليست بدعة أو خرافة أو قصة خيالية أو بنية ميتافيزيقية غيبية، ولكنها بناء
منطقي جدلي، وهي قبل كل شيء "واقع محسوس"؛ لتصبح، بالتالي، علاقة موضوعية منتظمة رغم "صفاتها
اللاعلمية".

⁽¹⁶⁾-Ardao(Arturo), Logique de la raison et logique de l'intelligence, trad. Audibert (Maurice),
L'Harmattan, Paris,(2003),p.:70.

⁽¹⁷⁾-Vergely(Bertrand), Les interrogations philosophiques, Les Editions Milon, France, (1998),
p.:29.

العلماء (بما فيهم علماء الفيزياء)، بحاجة للعودة إليها، لأنها ضرورة جدلية للإدراك والفهم للوجود؛ إدراك العلاقة الحياتية المتبادلة بين الذات والموضوع؛ إدراك الوسط حيث توجد الإرادة والأحاسيس والانفعالات وغيرها... وعليه، تصبح الأسطورة عالماً محققاً رمزيًا. نحن لو سلّمنا بحقيقة الأشياء كما هي قائمة واقعيًا ومدركة حسيًا، فهي إذن أساطير، ولأنّ هذه "الأشياء" كونها "تتصارع" في التجربة الحيّة، وحتى "الأشياء اليومية"، هي بهذا المعنى منفصلة أسطورياً، إذ لا يمكن إدراك الأشياء كما هي حسيًا؛ أي معزولة وخارج سياقها الشخصي والاجتماعي. ويمكن القول بنوع من الاقتناع العلمي، أنّ الانفصال عن مدلول الشيء (أي الشيء المعزول تجريدًا) حاضر دائماً في التجربة الفيزيائية، وإنّ التجربة، في هذه الحالة، تبدو أسطورية. "الأشياء الحية" أسطورية في عمقها، والانفصال، ما هو إلاّ انفصال عن انعزال مجرد، وأنّه في حقيقة الأمر، ليس انفصالاً فيزيائياً مؤكداً، بل هو أساس "الواقع الحقيقي-الحي".

لكن، هناك إشكالية؛ إذا كان الأمر كذلك، لماذا كل هذا الغموض حول مفهوم الأسطورة؟ لماذا لا نعيد صياغتها من جديد، نحو: علاقة حيّة، تجربة واقعية، مدلول حقيقي، شيء...، فإذا كان كل ما هو موجود فيها (الأسطورة) يناقضها، لماذا نتحدث عنها كخرافة وخيال؟ فقد يظهر الانفصال الأسطوري "حقيقة مؤكدة"، بما أنّه ليس انفصالاً عن أشياء معزولة ومجردة. الأمر الذي يدعونا، إلى البحث عن تحديدات و"مفاهيم جديدة" تجاوز "الفتنات اللاواقعية" التي طبع بها مفهوم الأسطورة.

خاتمة

إنّ الأسطورة هي ذلك الذي يجري، يتحرك، وهي لا تتناول أفكاراً، إنّما أحداثاً ووقائعاً؛ أحداثاً خالصة تنشأ وتتطور، ثم تنتهي، دون أن تنتقل إلى الأبد. ومنه، يمكن القول، أنّ في علم التاريخ توجد نسبية وعدم استقلالية واضحة المعالم، لأنّ التاريخ بمثابة صيرورة الوجود الشخصي المتفرد، لتصبح الأسطورة تاريخ؛ لكنّها ليست تاريخ شخصيات، أو حكايات تاريخية، فقط أنّ الأسطوري من حيث المبدأ تاريخي؛ أي يقدم من وجهة نظر التاريخ، فهو تاريخي في الإمكانية. وهكذا، تصبح الأسطورة ليست بعقيدة محضة، بل هي تاريخ حيّ، وتضحى في النهاية صيرورة تاريخية. لكن هذه الصيرورة التاريخية ليست صيرورة طبيعية، لأنّ التاريخ لا يتطور وفق نمط العمليات الطبيعية، بما أنّه ليس عنصراً من عناصرها، فالطبيعة ليست في عمقها تاريخية، والذات الإنسانية هي التي تضفي عليها هذه الميزة، تبعا للحقبة التاريخية التي تعيش فيها هذه الذات.

إذا كان الأمر كذلك، آن الأوان لكي نحاول إعادة النظر في الكثير من المفاهيم الفيزيائية الأساسية؛ كالمادة أو الحركة أو القوة أو حتى الذرة؛ لأنها هي الأخرى، تتغيّر كغيرها من "البنيات الذاتية"، وبالتالي، تكون مختلفة تماماً في مراحل تاريخية مختلفة. يسمّى الكون مجازاً "الثقب الأسود الفارغ"؛ لكن أليس هذا "الثقب الأسود" مكان

جامد وبارد ؟ ألسنا في حالة تشويه لأنفسنا، في "سجن أسود مصطنع"، نبنيه بصفة عشوائية، مؤسسين لـ"عدمية المعرفة الطبيعية" ؟

من وجهة نظر أسطورية دائماً، لا وجود لظاهرة – طبيعية كانت أو غير طبيعية- بمعزل عن "تدخل قوى عليا" خارجية عنها، والأسطورة تتخلّق بلا انقطاع أو توقف، ولا وجود أبداً لـ"شيء" غير أسطوري. فإذا رجعنا إلى الميثولوجيا، يصبح خلق الكون نفسه أسطورة. المادة/أسطورة، الحركة/أسطورة، الانبعاث/أسطورة، حتى الحياة والموت هما كذلك أسطورة... تصبح الأسطورة هنا كنوع من "التدخل الخاص والحاسم"؛ وهذا التدخل يعمل في غالب الأحيان على "خرق القوانين الطبيعية"، وانتزاع مكان في حركة الكون الميكانيكي المبني على مبدأ التعاقب، ولو تناولنا هذا التعاقب ظاهرياً على الأقل. وعليه، يمكن تعريف الأسطورة على أنّها واقعة تدخل "قوى خارجية"، تعمل على "الإخلال بالسير الميكانيكي العادي" للأشياء والظواهر. لكن، إنّ عملية الخرق هذه، في عمقها بناء وتنظيم وضبط للمنظومة الفيزيائية؛ فلا يتم لنا تأسيس هذه القوانين المرئية، إلاّ باختراقها قصد استيعابها وتبريرها، كي تصبح في النهاية، قوانين "حقيقية"، "غير قابلة للاختراق".

بيد أنّه، يمكننا التساؤل من جديد؛ هل العلم يعمل على تأسيس قوانين الطبيعة ؟

قد لا يهتم العلم (ونحن نقصد علم الفيزياء)، بوضع قواعد وقوانين لامتغيرة للطبيعة، بل يساهم في وضع الفروض وإضفاء المطلق عليها؛ أي جعلها أكثر أسطورية. فحتى قضية الإيمان بالقدرة الخارقة للعلم على تفسير جميع الظواهر، تعتبر وعياً أسطورياً خالصاً. حتى العلم ذاته، "يرفض" هذا المنطق من التفكير. إذا أخذنا على سبيل المثال، ظاهرة سقوط الأجسام، يعتبرها العلم فرضية، وليست "حقيقة مطلقة"، الأمر الذي يجعلنا نفكر بجديّة في تغيير هذا "القانون" بآخر، وذلك في مستقبل قريب أو بعيد...

قائمة المراجع المعتمدة

1. المراجع باللغة العربية:

- (01). بونوا(لوك)، إشارات، رموز وأساطير، ترجمة: فايز (كم نقش)، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط.1، (2001م).
- (02). الجبوري (محمد أحمد عبود) وعبد النور (كمال نصر)، الفيزياء الحديثة، المكتبة الوطنية، بغداد، (1983م).
- (03). هيجل (فريدريك)، محاضرات في تاريخ الفلسفة-مقدمة حول منظومة الفلسفة وتاريخها-ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط.2، (2002م).
- (04). جاكوب (فرانسوا)، منطق العالم الحي، ترجمة: حرب (علي)، مركز الإنماء العربي، بيروت، (1990م).
- (05). الشنيطي (محمد فتحي)، أسس المنطق والمنهج العلمي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (1970م).

2. المراجع باللغة الأجنبية:

- (01). Ardao (Arturo), Logique de la raison et logique de l'intelligence, traduit par: Audibert (Maurice), L'Harmattan, Paris, (2003).

- (02).Braunstein(Florence) et Pépin (Jean-François), Les grands mythes fondateurs,. Ellipses, Paris, (1995)
- (03).Dante(Alighieri),Vie nouvelle, traduit par:Bec(Christian), Les éditions du livre de poche,Paris,(1996).
- (04).Diderot(Denis),Entretien entre d'Alembert et Diderot, Garnier-Flammarion, Paris,(1964).
- (05). Eliade(Mircea),Mythes,rêves et mystères,Gallimard,Paris,(1957).
- (06).Eliade(Mircea),Aspects du mythe,Gallimard,Paris,(1963).
- (07).Lévy-Bruhl(Lucien),L'âme primitive,P.U.F.,Paris,Nouvelle édition,(1963).
- (08).Nietzsche(Friedrich),Le gai savoir-Fragments posthumes(1881-1882), traduit par Klossowski (Pierre), Gallimard,Paris,(1967).
- (09).Vergely(Bertrand),Les interrogations philosophiques,n Les Editions Milon,France,(1998).